الرمزية في التفكير الانساني

للأستاذ عبد المنعم عبد العزيز المليجي

مهما سما حظ الحيوان من الذكاء ، وأيا كانت قدرته على تعديل سلوكه والتصرف والاحتيال إزاء المواقف الجديدة تحقيقاً لأغراضه ، يبقى برغم ذلك فرق جوهري يميز الذكاء الإنساني من ذكائه ، فرق يولد فروقاً أخرى جوهرية هي السر في تربع الإنسان على عرش الكائنات الحية ، وسيطرته على الطبيعة بقدر ما يكشف من أسرارها وقوانينها . وسأحاول في هذا المقال أن أشرح هذا الفارق والفروق الأخرى الفرعية . أما الفارق الأصلي هو : أن الذكاء الإنساني ليس ذكاء حسياً فقط بل ذكاء رمزيا أيضاً ، فالوظيفة الرمزية في التفكير الإنساني هي الفيصل الحق بين عقل الإنسان وعقل الحيوان ، ولذلك ينبغي أن نذكر أن كلمة تفكير لا تطلق على الحيوان إلا تجاوزاً — إنما التفكير الحق هو التفكير الرمزي .

بيان ذلك أن الحيوان يدرك الوجودات المادية إدراكا حسياً ، أي تنطبع صور الأشياء التي يحسها بحواسه على صفحة الذهن . فهو يدرك كائنات مفردة أو جزئية — حسب التعبير المنطقي — ويستعيد صورها في غيبتها ، ويتعرف عليها إن رآها بعد ذلك . الكلب مثلا : يرى صاحبه فيدركه إدراكا حسياً ، ويرى غريباً فلا ينقطع عن النباح مما يدل على أنه أدرك الغريب ، وعلى أنه يستطيع التمييز الحسي بين شيئين كما استطاع التمييز حسياً بين صاحبه وبين الغريب . وإذا تغيب صاحبه ردحا من الزمن وعاد بعده إلى بيته ، اندفع نحوه وقد بدت عليه علامات الارتياح التي تنم عن وجود القدرة على التذكر والتعرف فالحيوان يحظى إذن بعديد من القوى العقلية الموجودة لدى الإنسان كالإدراك الحسي وترابط الصور ، والتمييز والتخيل والتعرف والتذكر ، بل إن بعض الحيوانات حتى العصافير تتحرك حركات استدل منها بعض علماء النفس الحيواني على وجود الأحلام لديها . بيد أن هذه العمليات جميعاً لا تتجاوز المستوى الحسي بأي حال ، فما يكون في ذهن الحيوان إذ يدرك أن يتخيل أو يحلم ليس إلا صورة أو مجموعة من الصور الحسية لأشياء جزئية مشخصة ، تتوالى على صفحة الذهن ، متداخلة متشابكة متفاعلة ، كما تتوالى صور الفلم على الشاشة البيضاء .

إن المادة التي يعالجها عقل الحيوان هي صور الوجودات الجزئية الموجودة في زمان معين ومكان بالذات ، والمتصفة بالصفات الحسية كاللون والطعم والرائحة والشكل والحركة والصوت واللمس ، وليس بمقدور الحيوان — أيا كان ذكاؤه — أن يسمو إلى إدراك المعاني الكلية التي يستخلصها الإنسان من مدركاته الحسية . فالإنسان لا يقف عند حد إدراك الأفراد إدراكا حسياً وتذكرها وتخيلها ، ولكن يدرك أيضاً ما تشترك فيه من صفات ويسقط أوجه الخلاف ، ويجرد بذلك المعنى العام الذي يدل عليها جميعاً . يدرك عمراً وزيداً وفلانا وفلانا من الناس ، ويتغاضى عن الصفات التي يختلفون فيها من طول وشكل ودين وأخلاق ، ويدرك فوق ذلك أنهم جميعاً — بصرف النظر عن حالاتهم الخاصة — يشتركون في صفة الإنسانية . لا يدرك الكلب والقط والعصفور فقط ، بل ينتزع من أفراد كل نوع من هذه الأنواع معنى عقلياً — لا حسياً — هو معنى الحيوانية الذي ينطبق على أفراد الحيوان جميعاً بنفس الدرجة . يدرك الإنسان تصرفاً من التصرفات الجزئية ويحكم عليه بأنه خير ، ويدرك تصرفاً آخر ويحكم عليه بأنه شرير ، فهو يدرك إذن معنى الخير ومعنى الشر إطلاقاً ، أي بغض النظر عن الفاعل وظروف الفعل . يدرك الإنسانية والحيوانية ، والخير والشر ، واللذة والألم ، والموت والحياة ، والحرارة والبرودة ، والسعادة والشقاء ، دون نظر للأمثلة الجزئية التي تدل عليها هذه المعاني ، ومن هنا كانت العملية العقلية التي نتغاضى عن الجزئيات بصفاتها الحسية لنستخلص المعنى العام الذي ينطبق على جزئيات كثيرة تدعى عملية التجريد .

وظيفة التجريد تزود الإنسان بالمعاني التي ترمز إلى ملايين المدركات الحسية ، فتوفر عليه مجهوداً عقلياً جباراً ومجهوداً جسمياً أكبر . لذلك كان الإنسان هو الحيوان الوحيد الذي يتجاوز عقله المستوى الحسي إلى المستوى العقلي المطلق من قيود الزمان والمكان ، وكان أقدر الحيوانات على التصرف والتكيف للظروف ، فهو

لا يحتاج إذ يفكر إلى تمثل صور الموجودات التي يفكر فيها ، بل يكفي أن يستحضر معنى واحداً كالإنسانية يقوم مقام اللايين من الأفراد الجزئية المحسة . الحيوان يتعامل بالمواد المحسة ، والإنسان قد يدع الموقف الحسي جانباً ، ويرجع إلى عقله متعاملا بالرموز التي تمثل عناصر الموقف . فهو إذ يريد أن يشيد بناء ضخما ، لا يستحضر المواد الأولية من حجارة وأخشاب وحديد وأسمنت ثم يعمل فكره في هذا الخليط مجرباً بانياً ثم هادماً ليصلح ما فسد ويقوم ما انحرف ، ولكنه يتناول القلم والقرطاس ويسطر المربعات والمثلثات والدوائر وغير ذلك من الرموز الهندسية والمعادلات الجبرية والحيل الميكانيكية حتى يتم التصميم . وما التصميم إلا مشروع عقلي صرف ، تم نتيجة التأليف بين رموز عدة ، فهو بدوره رمز يمكن تنفيذه في الواقع في أي وقت وفي أي مكان وبأي نوع من المواد . ثم يشرع الإنسان بعد ذلك في تنفيذ التصميم بتشييد بناء هو حالة مفردة جزئية من حالات عدة في حيز الإمكان .

يتفرع عن القدرة الرمزية إذن قدرة إنسانية فريدة هي الاختراع الذي نخطئ إن اعتبرناه مستنداً إلى الذكاء العملي اليدوي وحده ، وهي السر كذلك في القوة الفكرية العظيمة والإنتاج الإنساني الضخم ، أعني به « اللغة » ، فاللغة مجموعة من الرموز يحملها ما أدرك من صفات وما أحس من مشاعر وما يبغي من آمال ، وينقلها إلى غيره عن طريق الإشارة أو الإيماءة أو اللفظ ، فيكفي أن أنفوه بلفظ إنسان حتى تبرز في ذهنك الصفات التي ينطوي عليها معنى الإنسانية الذي يرمز إلى جميع أفراد الإنسان ، وتتتابع على صفحته صور حسية عدة ، مختلطة مبهمة ، مثيرة مجموعة من الذكريات والأخيلة والأحاسيس لا حصر لها .

طالما ردد الفلاسفة « إن الإنسان حيوان ناطق » ، ورددنا نحن قولهم هذا دون تدبر لحكمة اختيارهم لفظ النطق للدلالة على التفكير . وبعد ما أسلفنا تتبين العلاقة الوثيقة بين اللغة وبين الرموز ، بين اللفظ وبين الفكرة ؛ فاللغة نتاج القدرة الرمزية ، واللفظ المنطوق به حامل للفكرة المعقولة موشاة بخليط من المشاعر النفسية التي لا تنفصل بحال عن مجرى التفكير ، ويتبين صدق الفلاسفة إذ جعلوا النطق — أي التفكير الرمزي — فيصلا بين الإنسان وسائر الحيوان ، يتبين صدقهم لسببين :

الأول : أنه رفع الإنسان فوق الزمن وحرره من قيود المكان وأكسبه قدرة عقلية فائقة لم تكن لتتيسر له لو اقتصر على التعامل بالجزئيات ، وقدرة عملية ممتازة تتضح أكثر ما تتضح في المخترعات والمنتجات الصناعية والفنية المختلفة .

والثاني : أنه شكل حياة الإنسان الاجتماعية تشكيلا راقياً ؛ ذلك أن اللغة يسرت اتصال الناس بعضهم ببعض اتصالا فكرياً وعاطفياً في آن واحد ، فهي أداة التعبير عما يدور في الذهن من معان ، ووسيلة الربط بين القلوب بما تنقل من مشاعر .

تؤدي اللغة كل ذلك بأيسر وسيلة وأروعها ، وهي لا تربط بين فردين في صعيد واحد فقط ، بل تصل بين أفراد وأقوام تفرقوا شيعاً في شعاب الأرض قاصيها ودانيها ؛ ولا تربطنا بالأحياء فقط بل بالسلف وقد واراه التراب ، وطواه التاريخ في عصوره السحيقة . ألفت اللغة إذن بين القاصي والداني ، وبين الأحياء والأموات ، وبين الصغار والكبار ، وبين المتمدنين والبدائيين . وتيسر بفضلها خزن التجارب والمعارف نقوشاً على جدران المعابد ورموزاً في بطون الكتب سجلا خالداً يغني عن تجشم الصعاب التي تجشمها غيرنا ، ويوفر علينا جهداً هو حقيق أن يبذل في تحصيل معارف جديدة وكسب تجارب مفيدة ، تضيف إلى تراث الإنسان ذخائر جديدة . ولما كانت اللغة بمثابة النافذة التي نطل منها على نفوس البشر وعقولهم كانت بحق أداة الوحدة الاجتماعية أو عامل التكامل الاجتماعي — على حد تعبير مدرسة علم النفس التكاملي — عامل التأليف بين عقول البشر وقلوبهم وأذواقهم حتى قال بعض المفكرين إنه إذا كان للأفراد متفرقين عقول خاصة ، فلهم مجتمعين عقل عام يسمونه « العقل الجمعي » الذي يتولد عن اجتماع عقول الأفراد ويزيد عن مجموعها . فالأفراد مجتمعين يكتسبون كياناً مستقلا عن كيان الأفراد ، وللمجتمعات منطق خاص يعلو على منطق الأفراد ، وإرادة تفرض نفسها على إرادة الأفراد الجزئية ، ونفوذاً يكسر من شوكتهم .

وغير خاف أن التكامل الاجتماعي ، أو متانة البناء الاجتماعي ميزة حظي بها الإنسان — بفضل الوظيفة الرمزية — بينما الحيوان لا يزال في مرتبة دنيا من حيث الترقي الاجتماعي . ألا صدق الفلاسفة الذين فصلوا بين الإنسان والحيوان بوصفهم الإنسان بالحيوانية والنطق .

عبد المنعم المليجي
مدرس الفلسفة بحلوان الثانوية